

في رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ علي الطنطاوي



... منى، عبدالله،
حذراً، بتلفت إلى
الوراء خشية أن يراه
بعض سفهاء قريش،
فيقطعوا عليه سبيله،
فلم ير أحداً. وكانت
طرق مكة خالية لأن
الناس قد أموا الحرم
ليجسروا في مجالسهم
كعادتهم في كل مساء
فاطمان وسار قدما،
حتى إذا خرج من مكة
وجاوز الحجون -
واتسع الوادي أمامه

وانفرج، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار؛ ونظر... فراقه منظر
الغروب. على هذه السفوح والذرى، وأحس بجلال الموقف،
وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق. وهذه الصخرة التي تعم كل
شيء، فنتى غايته ووقف ينظر... رأى مكة تلوح أبنتها من فرجة
الوادي، وتبدو الكعبة قائمة في وسطها، والأصنام التي تحف بها
تظهر على البعد كأنها لطح سود... فذهب به الفكر سريعا إلى
ذنبك الرجلين اللذين تركهما صباحا في الغار. وذهب يتحسس لها
خبر قريش... ويعلم عليهما. ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأباه
الصديق (١)... فخاف أن يكون قد أصابها شر، فاغمض عينيه عن
هذه المشاهد، ومضى في طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت
في المنجد والظفر، وآثرت هذه القرية الجائمة بين هذين الجبلين
كأنما هي مخوفة في صندوق من الصخر. على السهول والجنان
والمدائن التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودها إليها وانصرفت
عن الرأية التي دفعها إليها محمد، لتسير بها إلى أرض النخيل والاعتاب

(١) انظر كتابي «أبو بكر الصديق» صفحة ١٠

غيرها. وأما في زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل
أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر. نعم فتحت البلاد في
عهده، ولكن الفتح يستدعي التمكن والتوطيد أولا. ثم إن عمر
كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة، وكانت صلته بالنبي عليه
الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة، حتى لو كان
كل شيء قد استقر وانتظم. ولم يكن قد عاش في الشام أو مصر
أو العراق حتى تبدوله مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة
أخرى. وأما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع
وانقسام، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة
ثابتة نهائية في مكان آخر غير الحجاز. ولما انتهى النزاع بفوز
معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها
كمركز للملك ومقر للدولة التي شاهدها بفضل ما تولى منها في
الفترة السابقة.

وبلاء جزيرة العرب أنها مجذبة قاحلة، فلذا امتدت لها رقعة
ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها، لأن الحياة في غيرها
تكون أرغد والعيش أطيب. والمرء يحن إلى الراحة والدعة
مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف، وفرق بين هجرة
تدعو إليها كثرة السكان، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل.
ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هي ذات
موارد كافية إلى حد ما. ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار
المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة. ومن
ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق
لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً في
قلب بلاده. وما دامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام
والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على
النزوح. وبذلك صارت الجزيرة أختل من الناس وأقل صلاحاً
لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة. وقد يتغير حال الجزيرة
في المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل
أرضها عقبة في سيل الحياة. ومهما يبلغ من غناها في المستقبل فإنها
ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها - إلى حد بعيد - على
أن كلامنا على الماضي الذي لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى
ذلك مما جد في الدنيا لا على المستقبل الذي هو غيب.

ابراهيم عبد القادر المازني

فكر « عبد الله » في هذا وهو يتسلق الصخور ، إلى الغار ، وكان لطول ماسمع من حديث الاسلام شديد الرغبة في توحيد العرب ، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن « في الشام والعراق » من الحكم الاجنبي ، وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب ، أثمرتها في رأس « عبد الله » الدعوة التي استجاب لها ، وآمن بها ، واستسلم عبد الله إلى أفكاره ، وأطلق لها العنان ، وشمل العالم كله بنظرة واحدة ، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة ، حرأ لم تذله تلك الأنظمة الجائرة ، أيا لم يألف طغيان الملوك ، وجبروت الأباطرة ، ليختم صفحة الماضي السوداء ، ويفتح في التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرّب ، ولم يعد صالحاً ، ولا بد من شعب قوى ماهر ، يهدم هذه الأطلال البالية ، ثم ينشئ بناء جديداً . إنه ليس في العالم إلا ثلاث كتل كبيرة ... كتلتان تصارعان صراع الديكة ، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى ، فسالت ديماء الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لغزو قرمزية حرام ، يمتازون بها من « سواد الشعب » وطاحت جماجم الشعوب ، والملوك يضحكون ويفرحون ، لأنهم سينشون منها برجا ، يترفعون به عن غمار الشعب

هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية ، وهناك كتلة أخرى في زاوية الكون نائمة على ضفاف « الكنج » ووراء « همالايا » لا يدري بها أحد ...

أهم تشقى ليسعد أفراد . شعوب قضى ليحيا رجال . مدن تحرق لتشعل منها « سيجارة » إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد ! فن هو الذي ينقذ العقل البشري من قيود الجهل والاستبداد ! من هو الذي يحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة ؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقم على أطلالها صرح الحضارة ؟ من الذي يهد السيل للمستقبل المنتظر ، لعصر الراديو والطيارة ؟ لعصر العلم والفضيلة ؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة ؟ لعصر السوبرمان ...

لا أحد !

كل شيء هادىء في العالم !

إن القافلة تمشى ببطء في عرض البادية ، قد خرّس الحادى ، ومات الدليل ، إنها تمشى نحو الموت !

إن السفينة تتخط في لجة اليم . تميل وتضطرب ، لم يعد لها أمل ، قد هبت العاصفة وطنى الموج ، وغرق الربان !

يا من يهدى القافلة الضالة ؟

يا من يخلص السفينة الخيرية ؟

فتركها في دمشق والاسكندرية ، وعلى إيوان كسرى . وفضلت عليها رايتها التي لم تعود الخفق في سماء الممارك الكبرى ، ولا ألقت الاهتزاز على أسوار المدن المفترحة . . . لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها . ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر ، ويعطيها العقل المبدع ، والقانون العادل ، والعبقريه والخلود ، فأبت ، وعكفت على أصنامها وتمائلاها . . . فما أعجب عقل قريش ! ونظر إلى مكة مرة ثانية ، فاذا الظلام قد لفها بردائه ، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور يخالط نفسه سرور مهم ، وشعر بزوال هذا الخطر القرشي ، واستروح رائحة الظفر ، فامتلا قلبه أملا ، وجعل يجبل بصره في الأفق الواسع ، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البلق في الشام ، والصروح البيض في المدائن ... قضى يتسلق الصخور إلى الغار ، وهو يقفز قفزاً ، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير !

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى ... ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التي تلهب في أيام الصيف التهايب ، وهذه الرمال التي تتسلسل إلى غير ماحد ، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة . لقد كان ذلك ، والتاريخ جنين في بطن العقل البشري لم يولد بعد ، وكان وهو طفل لا يبعى ، وكان والتاريخ صبي يميز ويدرك ، فرآه فسجله في دفتره ...

رأى وادى النيل ، وحوض الرافدين ، يمشيان إلى الخراب ، قد فضبت فيهما الحياة ، فإراعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة ، من وسط الرمال ، فتقذف إلى مصر (مينا) ليكون أول فرعون فيها ، وتلقى بينى كلدة إلى العراق ، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر ، يفتحون حقايب أدمعتهم ، فيخرجون منها الحضارة الأولى ، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن ، وتدور الأفلاك ، فتطحن الناس ، وتحطم الحضارة وتطحن الشعلة ، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد ، وتسمع الصحراء فتنبها وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط « مجموعة بشرية » عرفها التاريخ القديم ، ثم تاتي بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم ، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة في العالم ، وتنشئ في كل موضع « مستعمرة فينيقية » هي في الحقيقة مدرسة عالمية ، كان من أهم من تخرج فيها « اليونان »

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى ... ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى !

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحى العقل المهان ؟ يا من
ينفذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من يجيب ، كل شئ هادئ في العالم !

بلغ السيل الزبي ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فلفت الناس
فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنايس ، فأمرأ يوت الله ، ونفضوا
أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت في وجوههم
كل الأبواب ، ولكن باباً واحداً لا يزال مفتوحاً فوق رموسهم ،
هو باب السماء .

وسموا الفرج على السنة الكهان ورجال الدين ، علموا أنه
سيعث نبي جديد ، يطهر الأرض ، وينشر العدل ، يخرجوا فرحين
مستبشرين ، قد أحيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار
في سهول العراق الجبيلة ... فتشوا عنه على جبال لبنان الشجرية ،
وحداق الشام الغناء ، فتشوا عنه في المدن الكبرى ، عله يظهر إلى
جانب القصور في القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجيوش البشرية ،
فيبها ويزورها ، فتشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج
في السهول ولا في الجبال ولا في المدن الكبرى - ولكنه سيخرج
من حيث أنبثت الحياة ، من حيث يزغ فجرها من حيث خرجت
الحضارات الأولى ... من الجزيرة

تلك هي أم العالم فليجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

فتشوا عن النبي المنتظر في كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف
الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ،
وديس الحق ... فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنايس . فسموا
فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة ...
يا شعوب العالم !

استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التي ستغمر العالم
- ونفسه من أدراان الماضي - لقد نشأت من غار عال منقطع . في قة
جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثمار والرياحين -
نحو أرض المدنيات ... لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخي : إن
ركاب النبي المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب -
إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة
والمساواة ،

فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح ، وعاشت
بجه ، وسألت :

... إلى أين بلغ ؟ إلى أين بلغ ؟

— لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التي
جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئاً ، وحسبت أنها
تستطيع القضاء عليه ، فهي تريد أن تزد النبي فتقتله أو تسجنه ، فهي
تبث رسلاً ، يفتشون عنه في أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ،
ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفصاً ، ولكنهم يعمون عن هذا
الغار العالي المكشوف الذي يطل منه سيد العالم
— أهؤلاء يجرمون البشر من العصر الذهبي المرتقب ؟ ويقضون
على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للجرمين ،
يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون في كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبي !

وانتبه عبد الله ، فإذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من
ذهوله ، وتساق الصخر مسرعاً نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ،
التي لم تفهم قريش معناها - وحسبها سفراً من مكة إلى المدينة ، لقد
علم أنها انتقال من الماضي الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق
المخير ... فليقفز إلى الغار قفزاً ...

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : ...
يا من يعرفون قيمة الفكر البشري ، ويستمتعون بشمراته ...
يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة ...

لاتنسوا أبداً أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة
الحيرية ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران
غار (حرام) إذ برغت منه أنوار الديانة التي هذبت العقل الانساني ،
وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ
بدأت منه الموجة التي نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، ووقت
على الماضي السخيف ، وحملت إلى العالم أسنى المبادئ وأعلاها ، حين
حملت إليه تعاليم حرام

إن هذه الغيران كعبة في التاريخ ، لا ينبغي عقل ولا يمضى في طريق
التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها ...

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم)
نحو الغار ...

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامي ... ماخرج العالم من
الهوة ، التي دفنت إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجيوش
الملوك المستبدين ... ولا كانت حضارة القرن العشرين !

... هذا هو معنى الهجرة ، التي تحتفل اليوم بذكراها ، لحق على
كل متمدن أن يشاركنا في هذا الاحتفال !

على الخطاري

... من الله - سوريا